مبارحة الماضي :

الإسكندرية
في عصورها الاسلامية

للأستاذ أحمد رمزي

قال ياقوت الحموي : « لو استقصينا في أخبار الاسكندرية جميع ما بنتا لجاء في غير مجلد »

قدّم إلي في الأسبوع الماضي ، حضرة رئيس مكتب السجل التجاري بمدينة الاسكندرية[1] ، نسخة من كتاب طبعته الغرفة التجارية المصرية وعنوانه « الاسكندرية » من وضع لجنة المدينة التي أشرفت على تنسيق قسم خاص للنشر في شارع وادي النيل بالمعرض الزراعي الصناعي السادس عشر .

ولما تصفحت مقدمة الكتاب ، قرأت نبذة تاريخية ألفها أساتذة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فاروق ، ما انتهيت منها حتى أكبرت همتهم ، وشعرت بعظمة الإنتاج الذي تخلقه البيئات العلمية ، تلك البيئات التي تعيش وتحيا حيث توجد الجامعات .

وكان تفاؤلي في محله لأني قرأت في الأقسام التي أفردت لتاريخ الاسكندرية الإسلامي ، كلمات تعبر عن شعور النفس العربية المسلمة حيما يتعلق الأمر بتاريخنا المهضوم الحق . انظر إلى كلمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة واستفتاحه : « ما فقدت الاسكندرية في العصر الإسلامي شيئاً إلا استعادت به غيره » . واسمع قوله : « لم تلبث المدينة أن تعربت ، ودليل ذلك أننا لا نجد إلا عصبيات عربية في فتنة الأندلس سنة ١٨٣ هـ » فهذا كلام لم نسمعه من قبل : فيه حيوية وإخلاص .

ثم اطلعت على بحث الدكتور جمال الدين الشيال وعرضه للعصرين الأيوبي والمملوكي ، فأعجبني حين أعطى لصلاح الدين حقه ، وكلنا يعرف ما هي علاقة هـذا الباطل العظيم بمدينة الاسكندرية[2] . وكم كان موفقاً في حديثه عن تاريخ المدينة حينما أفاض عليها حلة شائقة من التحقيق العلمي وحين توج كل ذلك بذكره لزيارات الملك الظاهر بيبرس واهتمامه بأمورها .

كان هذا في نظري بمثابة فتح جديد في تأريخ مدننا المصرية

(١) مكتب السجل التجاري تابع لإدارة السجل التجاري من فروع مصلحة التصريح التجاري للتنمية الصناعية

(٢) من الغريب ألا نجد شارعاً أو ميداناً أو شارعاً يحمل اسم صلاح الدين وهو الذي دافع عن الاسكندرية

وقد يعن لك أن تقول كما قلت فعلا : إنك عالجت الأسطورة من جانب آخر جديد . جانبها الإنساني العام . ففي « أوديب » مثلا جعلت «الواجب الكارثة طبيعة أوديب ذاتها . طبيعته المحبة للبحث في أصول الأشياء المعنية في الجري خلف الحقيقة » .

ولكن الأسطورة هي الأسطورة . فلسفة الآلهة هي التي خلقت جوها وحوادثها .

لقد عاشت تراجيديا سوفوكل ، لأنها نبعت من حرارة وجدانه بالأسطورة الحية في ضميره وضمير شعبه . أما عملك أنت وعمل الآخرين من المعاصرين الذين لا يؤمنون بالأسطورة إيمان سوفوكل . فلن تكتب له الحياة إلا بمقدار ما في نفس كل منكم من إيمان حار بأسطورة « أوديب » ، وبمقدار ما عاشت هذه الأسطورة في ضمير شعبه وضميره من الحقب والسنين ، وبمقدار تناسق هذه الأسطورة مع الحياة الشعورية له ولشعبه بوجه عام .

ولا تؤمن بما يقوله الدكتور طه — مساء الله بالخير — ويردده من أن مصر إفريقية التفكير ، لأن مدرسة الاسكندرية القائمة على أساس الفلسفة الإغريقية تركت آثاراً عميقة لا تمحى ! لا تؤمن بهذا فإنما هذه هي فتنة الدكتور الكبرى بالإغريق !

قد يكون ذلك صحيحاً في الفلسفة ؛ في منطقة من مناطق الفكر المصري لا في سائر مناطقه . أما المنطقة الشعورية فلم تمسها تلك الفلسفة . فضمائر الشعوب لا علاقة لها بالفلسفة . والأساطير تنبع من هذه الضمائر الحية لا من الأذهان الجرداء !

والفنون لا تكتب لها الحياة إلا حين تنتج من هذه الضمائر المكنونة ، حين تتصل بالنبع العميق الساري وراء الأذهان والأفكار ...

ما من عمل واحد يخلد إلا إذا فاض من الشعور .

(وشطون) سيد قطب

إذ ما رأيت كتاباً أو دليلا تعرض لتعريف مدينة الاسكندرية إلا مرّ على عهدها العربي والإسلامي مروراً بسيطاً لا يشفي الغليل كأن عهد الإسلام والعروبة كان عهداً غريباً عن مصر وأهلها !! فكل من كتب عن تاريخ الاسكندرية من كتاب الفرنجة وغيرهم يولي العهدين الروماني واليوناني جُلّ اهتمامه ، ويبرزهما بروزاً ساطعاً ، بل منهم فريق يسرف في القول ويغالط في الحقائق حتى إذا جاء لعهدنا قال : « إن المدينة فقدت أهميتها وعمرانها وأصبحت خراباً يلقماً » . فكأنه يقول في مواجهتنا : لدى هؤلاء القدماء المدنية والحضارة ، ولدينا الجهل والخراب . ! لديهم كل ما يحبب ولدينا كل ما ينفر ! . أليس في هذا دعوة إلى إنكار شخصيتنا وإلى الفناء في الغير فناء لا رضاء لأنفسنا ولا لأحفادنا ولا لنهضتنا القومية ؟!

***

كنت منذ سنة أعمل على رأس مصلحة السياحة المصرية ، وكان من ضمن عملي الاطلاع على بعض الكتب والنشرات التي تتكلم عن الاسكندرية وعرضت على مجموعة من هذه منها القديم والحديث ، وكان من بينها كتاب لعالم غربي أريد إعادة طبعه على نفقة الحكومة المصرية ، ولما قرأته دهشت من كثرة ما حواه من الأخطاء عن تاريخنا القومي ، فحاولت جهدي أن أرد الحق لنصابه وأرفع بعض الإبهام وأعطي صورة واضحة عن تاريخ المسلمين وأثرهم ، وكنت أؤمل وتتمنى من جمهرة المثقفين في مصر ومن أهل المدينة أن يقوموا بواجبهم في سد هذه الثغرة التي تضعف من إيماننا في أنفسنا ، وتقلل من أمجادنا ، وتجعلنا في النهاية غرباء عن تاريخنا .

كل هذا دفعني إلى الإلمام إلماماً تمهيدياً لما كانت عليه عظمة هذه المدينة . فخرجت بأشياء تجعلني أسلم بما جاء به ياقوت الحموي في معجم البلدان من أن ما وصله عنها يستحق أكثر من كتاب واحد . ونحن أمام تاريخ الإسلام في الاسكندرية نقرر أنه في حاجة إلى عدد من المجلدات الضخمة .

***

وإليكم أول ما تبادر إلى ذهني في تلك الأيام ، أنقله كما هو ، قلت : « الذي أعرفه وأشعر به عن أهل الاسكندرية حين أزور مدينتهم ، هو أنهم أهل رباط وجدة ، نرى في وجوههم أن أسلافهم وفروعهم تنحدر من صميم القبائل العربية التي رابطت في هذا الثغر الإسلامي ؛ فيهم نخوة وشدة وحماس ودفعة وإقدام على المخاطر . وتلك صفات انفرد بها أهل المناطق والرابطة في أنحاء العالم الإسلامي من أهل الثغور والعواصم الذين كتبوا بدمائهم ملاحم الحروب ، فهم إذن سلالة أولئك الذين فتح الله على أيديهم هذا الثغر وأبناء الأبطال الذين صدوا وهزموا كل من حاول الاعتداء على أراضي مصر الإسلامية طول مدة العصور الطويلة الماضية التي نعمت فيها البلاد بنعمة الاستقلال الصحيح والعزة والكرامة » . وأراني اليوم أكثر تمسكا بهذا الرأي مما كنت.

رجعت إلى ما كتبته أيام السياحة ؛ لأني أعجبت بالقسم التاريخي من كتاب الغرفة التجارية ، فعدت إلى أوراق الماضي أقلبها ، ثم حمدت الله أن تنبهت الغرفة لهذا التاريخ الإسلامي ، وسلمت أساتذة قسم التاريخ بكلية الآداب هذه الأمانة ، فأدوها وهذه لفتة جديدة لم تعرفها المدينة قبل اليوم .

ولكن مثلي يطمع في الكثير من هذا ؛ يطمع أن تعرض عليه حوادث التاريخ الحي ، وأن يثني بمواقف أهل المدينة ، ويشادم آثارها الإسلامية ؛ ويشمخ بأدبها العربي وروحها الوثابة وبما خلفته وتركته لنا تلك العصور العزيزة علينا ، وهذا عمل عظيم ، أؤمل أن يتولاه الأدباء والعلماء والمؤرخون وأهل الآثار ورجال الدين والقضاة وكل محب للإسلام والعروبة .

***

فهذه مدينة أصبحت أكبر منازل الرباط في مصر منذ أتم الله فتحها على يد منقذ مصر الأكبر « عمرو بن العاص » ، فبرزت بروزاً في تاريخنا لا يمكن إنكاره ولا الإقلال من أهميته رغم الطعنات التي يوجهها الغير إلينا وتحديهم لنا .

إن أيام الفتح توحي بالكثير من المواقف وقد أوحت بالفعل شيئاً من ذلك: أنني لا أزال أذكر ما نقل عن عمر وهو يحدثنا قائلا : « ثلاث قبائل من مصر ؛ أما مهرة : فقوم يقتلون ولا يُقتلون ، أما غافق : فقوم يقتلون ويقتلون ، وأما بلي : فأكثرها رجلا صحب النبي صلى الله عليه وسلم وأفضلها فارساً » . قال هذا عندما نزل بعض هذه القبائل في الاسكندرية إبان القتال الدائر حول أسوارها

عند ما حمل الروم على العرب فقتلوا لأول مرة رجلا من مهرة — ولم يكن قد قتل أحد منهم قبل ذلك اليوم — واحتزوا رأسه وحملوها . وقالوا : « لن ندفنها حتى نأتي برأسه » . فقال لهم عمرو : « كأنكم تغضبون على من يبالي بغضبكم . احملوا على القوم واقتلوا منهم ثم ارموا برأس قتيل منهم يرموكم برأس صاحبكم » فخرجت الروم واقتتلوا . فقتل من الروم رجل من بطارقتهم ، فاحتزوا رأسه ورموا به الروم ، فألقت الروم برأس المهرى إليهم . فقال : « دونكم الآن ، فادفنوا صاحبكم » . وقد تكون هذه القصة واقعية أو من عمل الرواة بقصد الدعوة إلى الحماس ، وهذا لا يهمنا بقدر أنها تعرفنا من كان على أبواب الاسكندرية يقاتل . وهؤلاء هم أصحاب المدينة . إذ أجمع المؤرخون على أنهم عند الفتح كانوا من خلاصة القبائل العربية التي استوطنتها بعد جلاء الروم عنها . قال المقريزي : « إن لخماً كانت أعز من في ناحية الاسكندرية وأطرافها »[1] . وهي قبيلة امتدت فروعها وبطونها في صميم مصر ولا يزال أبناؤها في إقليمي البحيرة والشرقية ، ولها المواقف التاريخية في كل حادث من حوادث التاريخ . وليس من السهل إنكار التاريخ والخروج على الأصول والأنساب .

وللاسكندرية مواقف ومعارك وأحداث تحدث التاريخ عنها وأهلها أحق من غيرهم بآثارها والتفاخر بها ، ولم يكن سكانها في تلك العصور ممن تلين قناتهم . أولا يمتد الخصوم بهم فيصفونهم بالاصفار والقراصة ، وإنما كانت سيوفهم مرهفة ، ورماحهم للجهاد قاتمة ، وكانت لهم في البحر جولات ، طالما أدخلت الرعب والخوف في نفوس الروم والفرنجة ومن معهم . نعم ؛ جاءتهم قبائل عربية من المغرب ومن الأندلس ، أنزلوها حيناً باختيارهم ، وحيناً بعد حروب دامية . ومن نزل منهم رحبوا به ، ومن لم ينزل على حكمهم أرجعوه على سفنه وبعثوا به إلى البحر ثانية ؛ فهم مرابطون بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

نقل الكندي في فضائل مصر ما قاله سفيان بن عيينة لأحمد ابن صالح : « يا مصري ، أين تسكن ؟ » قلت : « أسكن الفسطاط قال : « أتأتي الاسكندرية ؟ » قلت : « نعم » قال سفيان : « تلك كنانة الله يحمل فيها خير سهامه » [1]

ونقل السيوطي في كتابه : أنه نُمي إلى عبد الله بن مرزوق الصيرفي ، ابن عم له اسمه خالد بن يزيد ، وكانت وفاته بالثغر الاسكندري ، فلقيه ثلاثة هم : موسى بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد ، منصرفين وكل منهم يقول : « ألم تكن ميتته بالاسكندرية ؟ . إذن هو حي عند الله يرزق ويجري عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك » .

(البقية في العدد القادم)

أحمد رمزي

(١) وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون « الصوفية » يأمرون بالمعروف فترأس عليهم رجل منهم يقال له « أبو عبد الرحمن الصوفي » تصاروا مع الأندلسيين يداً واحدة واعتصدوا بلغم وكانت لهم أعز في ناحية الاسكندرية . (خطط المقريزي ص ٢٧٩ الجزء الأول) .

(١) خطط المقريزي ص ٢٦٢ الجزء الأول .

ظهرت الطبعة الحادية عشرة
الصحيحة المزيدة المنقحة من كتاب
تاريخ الأدب العربي
يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ، ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى
بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات
اطلبه من دار الرسالة ومن المكتبات الشهيرة في مصر والخارج وثمنه ٤ قرش عدا أجرة البريد